طفولة لاجئ

بقلم حمزه عابد

كالعادة تلاشت خيوط الضوء، وتوهجت قناديل الظلام في بؤرة ضيقة من فضاء الغرفة، وانتصر السواد في تلك اللحظة، فما عاد هناك مقاومة من الخصم الأبيض الضعيف.

اليوم أنا لا أشبه العادة، ولست على ما يرام، فقد حملني على بساط الماضي البعيد، وعشته كما لو كنت، إنه كتلةٌ من مغامراتٍ وتجاربَ لا تنضب، منقطعة النظير، تنطلق منه بغير وعيٍ ولا إرادة، فقد أصبحت هذه المغامرات جزءاً لا يتجزأ من سيرته الحياتية، فتراه يضرب مثلاً أو يحكي قصةً، ويروي آخر في كل حدث، أعتقد أنه لا بد أن نغير المقولة الشهيرة لتصبح لكل مقامٍ مَثَل. رغم دخوله العِقد الثامن، واغترابه ثلاثة أرباعه عن الأرض التي حبا فوقها، إلا أنه يعيش الأمل بأن يحبو صوبها.

أجلس بجانبه في الغرفة الصغيرة، تغطيني رقعة الصوف الرقيقة الخشنة التي يمتلئ بيت جدي بها، والتي توزّع خصيصاً للاجئين الفلسطينيين في المخيمات. إنها لا تمدّني بالدفء المطلوب، كما أنني لا أشعر بالبرد، فالبَرَكة في الغرفة الصغيرة، ومدفأة الكاز، وحكايا جدي، إلا أنني أحب الرقعة الخضراء، فهي ترافقني في كل شبرٍ من بيت جدي، وترافقني مثيلاتها عندما تنتهي إجازة نهاية الأسبوع وأعود إلى بيتنا.

يجلس كعادته في زاويته المعتادة، تغطّيه فروة الصوف، تجالسه مدفأة الكاز، وأنا بين الجسمين أراقب، بين الواقع والخيال اللا متناهي، يغوص في عتمة أفكاره، يعتزل بكل حواسّه إلا من البصر، يحدّق في اللا شيء، يسرح بفكره إلى البعيد المنتظَر، يستذكر ساعات، يتأمل لحظات، إنه مدركٌ تعاسته ومرّ هزيمته، فهو لم يستطع أن يستمر في النغم الذي كان يعزفه، ولم يعد المايسترو الذي ينظم الأوركسترا خاصته، لقد سَلَبه السّواد القَوام الذي كان يملكه، سلَبه اسمه وشخصه، سلبه هويته، سلبه ترابه وأرضه، لكنه لم يسلبه حبّه وأغنياته، ولا خفقات قلبه التي تنبض باسم الوطن. أُوقِفُ شريط تفكيره قائلاً:

– مالَك يا سيدي سرحان، شو في؟؟!!

– والله يا سيدي مانا عارف شو أَكُلَّك، سرحان في هالحال إللي وصلنالو، بعد ما بَكينا نفتخر في حالنا عند مربط الفرس. سرحان في هالحياة اللي بطّلت تساوي شَكِّة تمرة وين إحنا يا سيدي من أيام البلاد، أيام البيارات والكَمِح، وجرار الميّة. والله يا سيدي إذا في جنّة عالأرض فهي أراضينا اللي طردونا منها البريطان واليهود.

كنت صغيراً في ذلك الحين، وأحب أن آخذ من جدي الكثير، فهو بئر من الحياة لا ينضب، متجذرٌ في كلماته اللاتي تُجاري لمعة البرق، طريقة سَرده كما سرب النمل. أسأله ثانيةً:

– وليش ما كَتَلْتوهِم يا سيدي؟؟

– ما كان عِنّا سلاح يجاري سلاحهم، بعدين كنّا فلاحين ومسالمين، يعني في الكَرْية الوحدة ما بتلاكي إلا أربع خمس بواريد، أما اليهود يا سيدي، فكان معهم دبابات وطيارات كلها من بريطانيا، يعني إحنا حربنا في الأصل مع الإنكليز، أما اليهود فما راح يهدى بالهم إلا لمّن يكملوا مخططهم ويحتفلوا بإسرائيل الكبرى، فيا سيدي الحرب مش علينا لحالنا، الحرب عالأمة العربية.

لقد قلت بأني لا أشبه العادة، ولست على ما يرام، الآن أضيف بأني حزين، فقد روى لي جدي حكايةً جعلتني ثمرةً تحط فوق غصنٍ جديد من شجرة المستقبل المنسي. أدركت بأني لاجئ ومغتربٌ عن أرضي، ولست سوى ضيفٍ سيعود أدراجه عاجلاً أم آجلاً، ولا بد من مرحلة انتقالية تغيّر متن القصة.

قد يكون جدي هرِماً، لكن مساحات عقله وذاكرته تستوعب الكثير وتحوي الكثير أيضاً. هنا، من هذا المكان، من مخيم البقعة، من بيت جدي، من دار أبو حسني، أعلن التالي:

لاجئون اسمنا في دفتر التاريخ
تَرانا في المخيم
بيتنا صحراء .. وسقفنا سماء
لأمٍ بعيدةٍ أبناء
نعيش أرضنا في دفتر الإملاء
منبع للبؤس من رقعة خضراء
مدفأة الكاز .. الغرفة الصغيرة .. فروة جدي
كلها لبعدنا أسماء
في القلب جفاني الحب لغيرها
فهي أمٌ وحبيبة أشتاقها كل مساء

انجلى الليلُ، تعكَّرَ الصمتْ، تلاشى السواد، وقُهِرَ البَرْد. فاقتْ من قيلولتها المعتادة، تفتّحتْ عيناها الزرقاوان، وألقتْ بكلِّ أنانيةٍ ولا مبالاةٍ، ألقتْ بحِملها الثقيل على عاتقِ هذا الفتى الحنطيّ المكسور، الذي أمضى تلكَ الثُّوْينات أثناء قيلولتها سارحاً شاردَ الذهن، متجرّداً من كلِّ شيءٍ إلا من الأمل، يجالسُ عتمةَ أفكاره التي حَلّتْ، ويُنْصتُ إلى هدوء الظلام، لا يسمعُ إلا دقّاتِ قلبهِ وعقاربَ ساعتهِ في يدهِ اليمنى، وصوتٌ بعيدٌ لقطرةِ ماءٍ تسقطُ وتسقطُ وتسقطْ. أيقنَ أنَّ القدرَ قد حكمَ عليه بالسباتِ الآنيّ، فعانقَ بجسَدِهِ النحيف المتعب زاويته المفضلة من أرضِ الغرفة الموحشة، تَوَسّدَ ذراعه، أغمض عينيهِ الذابلتين، وبدأَ يومهُ الذي لم ينتهِ بعدْ. تَصطكُّ الدقائقُ بالساعات، وهو يسمع خطى المارّة بجوار شبّاك الغرفة، غيرَ أنّهم يتحدّثون بلغةٍ لا يتكلّمها في أحلامهِ وقتَ النوم، لكنّه يُجيدها ويفهمها جيّداً .يعودُ لعتمتهِ التي يعشقُها بعد أن ارتختْ جفنيه

مُغلِقَتيْنِ عينيه، وإذا بصوتٍ دفينٍ يهمسُ في مؤخّرِ رأسه؛ "طلع الصباح كلّ الجمال في طلعتُه .. والنور سَرَح كَحّل عينينا بفتنته .. والطير صَدَح والمولى جَلّت قدرته .. ألحان جميلة تنعش القلب الحزين .. يسعد صباحكم كلّكم يا شغالين". إنّه يبتسمُ الآن، يا لسخرية القدر! فهذا الصباح الأحمقُ ليسَ سعيداً، وهو سوف لن يذهب إلى العمل اليوم، وإن ذهب فإنه حتماً يُفضّلُ أن يذهب ورفيق دربه الليل. لم يعدْ يسمع صوت قطرة الماء، ولا عقاربَ ساعةِ يده اليمنى، كما أنّهُ لا يسمعُ دقّات قلبه هي الأخرى .

–هل أنا ميت؟ أم فقدتُ حاسّة السمع؟

–أجننتْ؟ أحمقُ أنت؟ إنكَ ما زلت بيننا، بروحكَ لا بجسدك، فهوَ متعبٌ مرهق، أثقله ما وضعت على ظهره السماء من حِمْلٍ ثقيل .

–لكن ما الذي حدث؟ أجبني؟ ...

هو لم يمتْ، بل قطرةُ الماء استسلمت، ولم تعدْ تحاول الكرّةَ من جديد، فقد أمضتِ الليلَ وهيَ تحاولُ مراراً وتكراراً ألا تسقط، حتى أفرغت كل ما بجعبتها، وارتمت في قلب الحوض. وساعةُ يده اليمنى نفذت بطاريتها بمحضِ الصدفة، لتضيفَ نكهةً دراماتيةً في نسَقِ الحَدَثْ. أمّا قلبه، فهوَ ما برحَ ينبض بالحب والحنين لمن فقَدْ، للوطن وأمه وأحبتّه، ولنفسه. لكنه متعبٌ هو الآخر. إنَّ قساوةَ الدهر قد ظلمتْ هذا الفتى وقلبه الحزين، فلتعتقهُ أيها القَدر، فإنّ ربَّ الكائنات لا يُحمّلَ روحاً فوقَ طاقتها .

يقتربُ مغيب الشمس، وهو يرتقبُ قيلولة السماء، ليعتلِ منصّته، ويقودَ دفّةَ سفينته، ويُبحِرُ من جديد. إنه يستعيد حواسّه، ويصرخ بأعلى صوت؛ يا مرحباً بالليل.

يعودُ ذلكَ الصوت الدفين، يأنُّ بكلِّ صمت، أسمعهُ وألتمسُ وجعَهُ بغصّةٍ في صدري، يهمسُ ويقول: إنَّ التصاقي بك ليس بمحضِ الصدفة، فأنتَ الآن بأمسّ الحاجة لرفيقٍ مثلي. بعد أنْ خذَلَكَ القدَر، لا بدّ من معزوفةٍ جديدة تغيّر متن هذه الهستيريا التي تعيش، آن لكَ أنْ تقلب ساعة الرمل مرةً أخرى، فقد ركَد ترابها طويلاً في قعر الزجاجة. سوف لنْ تَنْعَم في هذه المرحلة الانتقالية الزائلة بارتقابك لتحلّ المعجزة، أن تضع السماء بغضبها بعيداً عنك، أو أن يُزيح القدر بكلّ هذه الخزعبلات التي حطّت في الباحةِ الخلفية لقلبك المهترئ من الصَفَعات المتتالية، واحدةٌ تلوَ الأخرى.

هيَ لن تعود، لأنها لم تغادرك، فهيَ هنا في كلّ مكان، تراها في الصباحات الباكرة، عند انجلاء الليل، قبل مجيء الصباح، في ذلك الفراغ الذي سيحلُّ قريباً. لستَ واحداً منّا إن أبعدتها عنك، لن تُصبح على خير، ولن يعطيكَ ربُّ الكائنات ما كُتبَ لك، حتّى تحفظها وتجعلها روحكَ من جديد. ارفع قَلمَكَ عالياً، تجذّر بأرضك ومنبتك، انظر عالياً، احلم كثيراً، كثيراً جدّاً، كن قوياً، كن أنت، كن كما أرادتكَ دوماً، فروحُك التي أعايشها دوماً مُذ بكيتَ حينَ وُلدتْ تحبّك وتحبّك وتريدك .

اصعد، تَجرّد، تمرّد، وأعلن انتفاضتك على هذه الديباجة المملّة، سِرْ ونحنُ بمحاذاتِك. كفاكَ تقوقعاً وشروداً، فوالله قدْ اضمحّلت طاقتي المتشبّعة بالحزن منذ كنتَ فتى جدّكَ المدلّل. انسج يومك، اجعلهُ ذكرىً مؤلمة، أو تأمّلاً لمستقبلك البعيد.

لا تنتظرها كما قال درويش، ولا تحبّها حتّى التعب كما غنّى مارسيل، لا ترفع من شأنها كما خطّت ريشةُ غوركي، ولا تخدش أنوثتها كما فعل كويلو، بل كن كَنفانيّاً، اجعلها الشيفرة الخاصّة بك، رقمكَ الصعب، أدمن عليها، تجرّعها، أفرغها في جعبتك كما الخمر، اجعلها أغنيتك الصباحية، فلتكنْ روحُكَ لكَ أنتَ وحدك.

احلم كثيراً، كثيراً جدّاً حدّ التّخنة، اسقف نفسكَ بالسماء، لكن اعلم جيداً أنه حتى الأحلامُ لا تملك وسائد مخملية.